العرب
الجمعة 2020/10/30
السنة 43 العدد 11866

تقارب طبيعي في منطقة غير طبيعية

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

الطبيعي أن تكون العلاقات أكثر من طبيعية بين مصر والسودان بعيدا عن أيّ نوع من التعالي من أحد الجانبين على الآخر أو محاولات الابتزاز التي اعتاد الإخوان المسلمون في السودان ممارستها في التعاطي مع مصر. جاءت زيارة رئيس مجلس السيادة السوداني عبدالفتاح البرهان للقاهرة ومحادثاته مع الرئيس عبدالفتّاح السيسي لتنقل العلاقات بين البلدين إلى حيث يجب أن تكون، أي إلى قيام تنسيق بينهما في ظلّ تحديات مشتركة. يظلّ أبرز هذه التحديات مياه النيل وتدفقها في اتجاه البلدين... وسدّ النهضة الذي بنته إثيوبيا في محاولة لفرض أمر واقع على كل من مصر والسودان في آن.

ما نشهده بين مصر والسودان هو تقارب طبيعي في منطقة تمر في ظروف غير طبيعية، هناك ظروف فرضت التقارب بينهما في وقت تسعى تركيا إلى لعب دور إقليمي مصطنع يفوق حجمها

في النهاية، إن مصر والسودان بلدان شقيقان فعلا. كان الملك فاروق ملك مصر والسودان في الوقت ذاته وذلك قبل أن يستقلّ السودان لاحقا في ظروف معقدة وتجاذبات مصرية – سودانية، وأخرى سودانية داخلية. جاء الاستقلال السوداني بإشراف بريطاني، مطلع العام 1956 بعد ثلاث سنوات ونصف سنة على الانقلاب العسكري الذي أطاح بالملك فاروق صيف العام 1952.

يعتبر ما نشهده حاليا، بين مصر والسودان، بمثابة تقارب طبيعي بين حليفين طبيعيين في منطقة تمرّ في ظروف غير طبيعية. هناك ظروف فرضت التقارب المصري – السوداني في وقت تسعى تركيا إلى لعب دور إقليمي مصطنع يفوق حجمها بكثير. فرض الدور التركي، على سبيل المثال وليس الحصر، اجتماعا عقد أخيرا على مستوى وزراء الخارجية بين إسرائيل واليونان وقبرص لمواجهة تحديات جديدة لم تكن اليونان وقبرص تتحسبان لها. إنّها تحديات مرتبطة إلى حد كبير بطموحات تركيا في البحر المتوسط من جهة ورغبة إيران في لعب دور على الصعيد الإقليمي من منطلق أنّها موجودة في لبنان وسوريا أيضا من جهة أخرى. صارت إيران أيضا دولة متوسّطية، غصبا عن الطبيعة والمنطق. صارت تمتلك طموحات خاصة بها. لذلك، تطرّق الاجتماع الإسرائيلي – اليوناني – القبرصي إلى نشاطات "حزب الله" اللبناني الذي ليس في واقع الحال سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني.

وهذا يحدث للمرّة الأولى في تاريخ العلاقة بين الدول الثلاث، التي لم يكن هناك تقارب أو تنسيق كبيران بينها.

لم تكن السنوات الممتدة بين 1989 و2019، عندما كان عمر حسن البشير في السلطة سوى حالة خارجة عن الطبيعة صنعها البشير بمشاركة حسن الترابي في البداية ثم استمرّ بها الرئيس السوداني المخلوع وحده بعدما تخلّص من الزعيم الفعلي للإخوان المسلمين في السودان. حاول الترابي مباشرة بعد الانقلاب الذي نفذه البشير في حزيران – يونيو 1989 أن يتحوّل إلى لاعب إقليمي من منطلق أنّه يعرف المنطقة جيّدا، خصوصا منطقة البحر الأحمر والقرن الأفريقي. اضطر البشير إلى كبح الترابي ووقفه عند حدّه بعدما عرف أن مستقبل نظامه يعتمد على حصر همومه بالسودان... حتّى لو كلفه ذلك التخلي عن سياسات الابتزاز التي جعلته يستضيف الإرهابي المعروف "كارلوس" قبل تسليمه إلى فرنسا في العام 1994 ثمّ الإرهابي أسامة بن لادن الذي ما لبث أن أبعده إلى أفغانستان في العام 1996. في مرحلة معيّنة، اضطر البشير إلى الاعتراف بانفصال جنوب السودان وتحوله إلى دولة مستقلة من أجل ضمان البقاء في السلطة. من أجل السلطة كان كلّ شيء يهون بالنسبة إلى البشير.

لدى مصر في الوقت الراهن تحديات كثيرة. السودان يحمي ظهرها. هناك تحدّي الوجود التركي في ليبيا وهناك تحدّي سد النهضة الإثيوبي الذي يجعل التقارب المصري – السوداني حتميا.

كان مفترضا أن يكون التقارب المصري – السوداني – الإثيوبي أكثر من منطقي، خصوصا أن رئيس الوزراء الإثيوبي آبي أحمد تصرّف منذ وصوله إلى السلطة في العام 2018 بطريقة حضارية تختلف كلّيا عن الزعماء الذين حكموا إثيوبيا بعد إطاحة النظام الإمبراطوري فيها في العام 1974. تخلّى آبي أحمد عن العنف الذي ميّز تصرّفات أسلافه الذين أصرّوا على قتل الإمبراطور هيلاسيلاسي بعد قلب نظامه، على الرغم من أنّه كان في الواحدة والثمانين من العمر!

كان مستغربا تصرّف آبي أحمد بالطريقة التي تصرّف بها في ما يخص سد النهضة، هو الذي حصل على جائزة نوبل للسلام في العام 2019. كان متوقعا، بعد إزاحة نظام البشير في السودان حصول تقارب وعلاقات طبيعية بين كلّ دول حوض النيل، في مقدّمها إثيوبيا والسودان ومصر. كان مفترضا فتح صفحة جديدة بين دول المنطقة وأن تأخذ إثيوبيا في الاعتبار مدى اعتماد مصر أوّلا والسودان ثانيا على النيل. من دون النيل لا وجود لمصر. إنّه شريان الحياة بالنسبة إليها. باختصار، إنّ المسألة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى مصر.

هل يؤدي التقارب المصري – السوداني إلى عودة رئيس الوزراء الإثيوبي إلى المنطق والتعقّل. الأكيد أن ذلك وارد، خصوصا بعد دخول الرئيس الأميركي دونالد ترامب على خط إفهام آبي أحمد معنى أن مصر ليست في صدد تمرير قضيّة سد النهضة ببساطة.

يأتي التقارب المصري – السوداني وزيارة عبدالفتاح البرهان للقاهرة بعد أيّام قليلة من الاتفاق السوداني – الإسرائيلي في شأن إقامة علاقات طبيعية بين البلدين. سيؤدي هذا الاتفاق إلى تغيير في قواعد اللعبة في منطقة البحر الأحمر والقرن الأفريقي التي هي موضع اهتمام إسرائيلي شديد. لكنّ السؤال الذي سيظلّ يطرح نفسه بإلحاح كيف ستستفيد مصر من تخلّص السودان من نظام الإخوان المسلمين الذي كان يتآمر عليها باستمرار والذي كان يعتبر أن في استطاعته أن يحدث تغييرا في القاهرة. ليس سرّا أن النظام السوداني لعب دورا في محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا في العام 1995. ليس سرّا أن تركيا حاولت إيجاد موطئ قدم لها في السودان. كذلك ليس سرّا أن إيران كانت، في عهد البشير، تهرب أسلحة إلى "حماس" في قطاع غزّة عن طريق السودان.

مرّة أخرى، إن التقارب المصري – السوداني أكثر من طبيعي في منطقة كلّ ما يجري فيها غير طبيعي.

سيريح التقارب مصر كثيرا وسيمكنها من لعب دور أكثر فعالية على الصعيد الإقليمي حيث يسعى شخص غير متوازن اسمه رجب طيب أردوغان إلى إثارة كلّ أنواع المشاكل والأزمات ليس في البحر المتوسط فحسب، بل في دول مثل اليمن والصومال أيضا!

التطبيع.. حرب بأشكال أخرى

علي الصراف
كاتب عراقي

إسرائيل ليست بعبعا، والإسرائيليون ليسوا كائنات فضائية.

لا حاجة إلى التعكز على حقيقة أن الفلسطينيين الذين اعترفوا بحق إسرائيل في الوجود، وفروا بأنفسهم غطاء لكل اعتراف مماثل. وكذلك الحال مع التفاوض، ومثله مع التطبيع. وهناك شعبان، يتصارعان، ولكنهما يتعايشان أيضا. أحدهما ظالم، والآخر مظلوم، هذا صحيح، ولكنهما لا يقيمان علاقات قتل على طول الخط. الآلاف من الفلسطينيين، يذهبون إلى العمل في إسرائيل، ويبنون بأيديهم المستوطنات التي تقام على أرضهم. هذا نوع من أوضاع القهر والظلم، إلا أن دافعه المعيشي البسيط يظل يفرض نفسه.

كل هذا لا يوفر تبريرا للتطبيع. التبرير الحقيقي، هو أن الاعتراف، الذي تجرد من كل الدوافع السابقة لإزالة إسرائيل من الوجود، هو الذي أوجد الحاجة لإطار ما من أطر التعايش.

والتعايش لا يعني القبول بالظلم. هذا شيء وذلك شيء آخر. تستطيع أن تحارب لإزالة الظلم. هذا حق مشروع وتكفله لك الشرائع. ولكن إذا لم تكن ترغب بإزالة الطرف الآخر من الوجود، فإن الحرب نفسها ستكون نوعا من التفاوض، مثلها مثل الانتفاضات، ومثلها مثل رمي الحجارة ضد قوات الاحتلال، ومثلها مثل البحث عن تسوية. هذه كلها حروب بأشكال أخرى.

الافتراض القائل إن التطبيع هو نوع من الاستسلام، افتراض سخيف بالفعل. إسرائيل دولة، والسودان دولة. ما الذي يجعل السودان أو البحرين أو الإمارات أو السعودية، تتخلى عن مكانتها كدول ذات سيادة، تقرر لنفسها بنفسها مصالحها، وتضع حدودا لما هو مناسب أو غير مناسب من أشكال العلاقات؟ هل سنبيع قمحا لإسرائيل مجانا، لأننا نُطبع؟ هذا لن يحصل. وإذا بعنا لها نفطا بسعر السوق، فلأنها مثل غيرها "سوق". لا شيء يبرر الافتراض بأن العلاقات بين الدول تعني استسلاما أو استذلالا. مصر لم تفعل ذلك على امتداد أربعين عاما من التطبيع. ولا الأردن. ولن يفعلها أي أحد. هناك معايير. وهذه المعايير ليست خاصة بالعلاقة مع إسرائيل. إنها معايير خاصة للعلاقة بين كل الدول.

الافتراض بأن التطبيع "استسلام" يدل على مقدار هائل من عدم الثقة بالنفس. إنه تعبير عن ضعف دفين هو نفسه مخيف. عسكريا، مصر أقوى من إسرائيل، وتستطيع أن تغلبها في أي حرب. وفعلت ذلك، حتى عندما كانت إسرائيل تمتلك فائدة جغرافية كبرى، باحتلال سيناء ووجودها على الطرف الشرقي من قناة السويس. لا يوجد ضعف في العلاقة بين مصر وإسرائيل، ولا بأي معنى من المعاني.

البعبع لا يُخيف إلا الأطفال. والذين يخافون من إسرائيل بافتراض أنها بعبع، يمارسون السياسة بعقل طفل.

ولقد جربنا من "البعبعية" حدا جعل من مجرد الحديث مع أي إسرائيلي أو يهودي، يبدو وكأنه كارثة.

جانب من شعور الإسرائيليين بالتفوق والغطرسة، إنما يعود إلى تلك "البعبعية" التي صنعها الخائفون من البعبع. فعندما يمد لك إسرائيلي يده ويراك ترتجف، لا بد أنك تترك له شعورا بأنه كائن خرافي.

تستطيع أن ترفض المصافحة، مثلما يمكنك أن تفعل، كبشر، مع أي بشر آخر قد يعتدي عليك. ولكن ذلك لا يمنع من التحدث إليه إذا توفر ما يستوجب الحديث، ولا المصافحة إذا استوجبت اللياقة.

مقدار من الثقة بالنفس، يمكنه أن يجعلك أنت في وضع متفوق، لا الطرف الآخر. يكفي أن تعرف ما أنت عليه، لتعرف أن بلادك ليست ضعيفة، وشعبك ليس هزيلا، وتراثك ليس قشة في مهب الريح.

السودان، بتاريخه، وطبيعته الاجتماعية، وقيمه، وتوافقاته السياسية وديمقراطيته، سوف يظل هو نفسه، بتطبيع أو من دون تطبيع.

ما لا يُعقل، على الإطلاق، أن يتخذ بعضنا من التطبيع سببا للتخوين أو التجريم. هذا في أقل الأحوال، قلة أدب. لأنه اتهام قائم على سوء فهم، وعلى إساءة من دون مبرر، وتجريح قائم على افتراضات بليدة.

ما هو حقيقي هو أن الدول التي اختارت التطبيع لم تتخل عن دورها في الدفاع عن الحقوق الوطنية المشروعة للفلسطينيين. أما التخوين، الذي يأتي من المسؤولين الفلسطينيين، فهو يقصد شيئا واحدا، هو أنهم يريدون أن يستخدموا التطبيع كورقة في مفاوضاتهم مع إسرائيل. هم ليسوا ضد التطبيع من حيث المبدأ، وإنما ضد الورقة، عندما لا تكون بأيديهم. هذه هي كل القصة. لا أكثر ولا أقل.

لديهم أوراق أخرى كثيرة. لديهم شعبهم. لديهم القانون الدولي ومرجعياته. لديهم تضامن الأمة العربية كلها إذا انتفضوا ضد الاحتلال، إلا أنهم لا يريدون استخدامها، ولم يضعوا استراتيجيات لاستخدامها أصلا. إلا ورقة التطبيع، فهذه يجب أن تكون في الجيب، وإلا جازت فيك الشتائم.

للسلطة الفلسطينية الحق في أن تقرر مصالحها ومصالح شعبها من دون العودة إلى أحد. ولكن لا يحق لأي أحد، في العلاقة مع البعبع، أن يقرر مصالحه، إلا بالعودة إلى تلك السلطة. وما تلك إلا قسمة ضيزى.

التطبيع، على أي حال، ينهي حربا بالمعنى التقليدي، ليبدأ أخرى.

يوم كنا نرفع شعار: كل شيء من أجل المعركة، كان المعنى من ذلك أن نستعد لخوض حرب عسكرية. فخسرناها وخسرنا كل الحروب الأخرى معها. خسرنا بناء الذات بالدرجة الأهم. خسرنا بناء القوة الاقتصادية، كما خسرنا القدرة على مواكبة العلم، وبقينا عاجزين أن نستوعب الحاجة إلى التحرر المعرفي، جنبا إلى جنب التحرر الاقتصادي. ومضى كثير من الوقت، لنفهم أن الحروب العسكرية لا تُكسب بالسلاح وحده، كما لا تُكسب بشرائه من الغير.

وبينما نحن ندفع من جلودنا ثمن كل سلاح، فإسرائيل تحصل عليه مجانا. هذه حرب خاسرة سلفا.

بالتخلي عن خيار الحرب بالسلاح، يبرز التطبيع كحرب من أجل استنهاض الذات. الاقتصاد من جهة والمعرفة من جهة أخرى. كسب هذه المعركة، أهم من تدمير 100 طائرة للعدو.

كن عاقلا وافهم: أهم من "قتل يهودي"، يجب أن تكون قادرا أنت نفسك على العيش. هذه ثقافة، وتلك ثقافة أخرى.

الحرب، أداة لكسب الحقوق. ولكنها ليست الخيار الوحيد. التسويات ممكنة عندما تتوفر الشروط. والشروط ليست دبابة مقابل دبابة. إنها كل المستلزمات الأخرى أيضا. ومحظوظ من يمتلك القدرة على الوقوف على ناصية الشروط الصحيحة.

التطبيع يمكن أن يضع نهاية لحرب خارج الأفق المنظور (آخرها كان قبل 47 عاما) لخوض حرب واجبة ضد الفقر والمرض والجهل، وضد كل أوجه الفشل الأخرى التي حولت إسرائيل إلى "قوة لا تُقهر".

التطبيع، هو أن تكسب أرضا داخل إسرائيل بالتغلب على ثقافة الاستعداء والكراهية المتبادلة. وهو أن تتخلى عن ثقافة القتل وأدواته تلك التي لم تُثمر إلا التعثر والخسارة.

إسرائيل كيان قابل لإعادة التشكيل. تمعن في هذه الحقيقة، وسترى أنك لست بحاجة إلى حرب بالطائرات والدبابات والمدافع لكي تكسب سلاما عادلا ودائما وشاملا يحترم الحقوق ويمتثل لمقررات الشرعية الدولية.

إسرائيل لديها مشاكلها، مثلما أن لدينا مشاكلنا. التطبيع لا يحل هذه المشاكل، ولكنه يفتح الطريق لكي يلتفت كلٌ إلى مشاكله. قيم العدالة والسلام والقانون سوف تكون هي المستفيد الأخير.

خضها ولا تخف. لا تتخل عن الحق. دافع عنه بشجاعة الواثق من نفسه. واجعل غريمك قادرا على أن يُصغي إليك. إسرائيل ليست بعبعا، والإسرائيليون ليسوا كائنات فضائية.